بين لغة الشعر ولغة العلم حازم القرطاجني نموذجا

محمد كوشنان
جامعة المدية

مما لاشك فيه أن ظهور اللغة عند الإنسان كان انجازا عظيما ساهم في تقدم هذا الإنسان ورقيه وتطوير حياته الشخصية وعلاقاته مع أوساط محيطه ومختلف وسائطه.فاللغة تعد أداة فعالة في حياة الإنسان وهي روح المجتمع ووسيلة تواصله،وأداة التفكير و مادته،ومنذ حقق الإنسان هذا الإنتصار باكتشافه للغة عرفت حياته تغييرات كثيرة،و أصبحت اللغة تؤدي وظائف في حياته و حياة الجماعة و أفراد المجتمع .

فمنها الوظيفة الذاتية الشخصية التي تتعلق بالفرد بحيث تمكنه من تحقيق أهدافه والإفصاح عن خوالجه من جهة، ومن جهة أخرى تعتبر أداته في الإتصال والتواصل مع الآخرين من أفراد بيئته.

وبذلك يظهر أن للغة وظائف مختلفة ومتعددة، ومرد ذلك الإختلاف والتعدد يرجع إلى نوع لغة الخطاب الممارس من قبل المرسل لها، فبقدر ما تعتبر اللغة وسيلة طيعة لقضاء الأمور وربط الأفراد بعضهم بعضا،فإنه تبقى لكل واحد منهم لغته الخاصة به في مجال استخدامه لها .

وطبيعي بعد ذلك أن يكون الإختلاف واضحا بين لغات المتكلمين داخل اللغة الواحدة،فمثلا لغة الأطباء ليست هي لغة أهل القانون ، ولغة المناطقة تختلف عن لغة الصيادلة، ولغة الأدباء ليست شبيهة بلغة العلماء ، وكل لغة من هاته اللغات تختلف عن الأخرى.

وهذه الورقة البحثية سنخصصها للتمييز بين نوعين مختلفين من اللغة ألا وهما لغة الشعر ولغة العلم من خلال الإجابة عن التساؤل الآتي:

ما الفرق بين لغة الشعر ولغة العلم؟ وما خصائص كل منهما؟ وهل فرق النقد العربي بينهما وحدّد المصطلحات الواجب استخدامها من قبل الشاعر والعالم ؟

ماهية اللغة وأهميتها:

لا شك أن أسلافنا من النقاد العرب كانوا عل وعي تام بفهم طبيعة اللغة واختلاف المستوى الثقافي والاجتماعي للمتحدثين بها وأغراض حديثهم ، ولعل من أوضح المظاهر الدالة على ذلك إشارتهم إلى أن لغة الأدب تختلف عن لغة العلم ولغة الحياة اليومية اختلافا واضحا .

ويصادف الناظر في تراثنا أن اللغة أعطيت لها مفاهيم كثيرة ومتنوعة،إلا أن أرقى التعاريف التي يمكن العثور عليها في التراث اللغوي العربي ذلك الحد الذي وضعه (أبو عثمان بن جنى) للغة حين قال:" أما حدُّها فهي أصوات يعبَر بها كل قوم عن أغراضهم"[37] ففي هذا إشارة من ابن جني إلى عنصرين مهمين، فهناك أولا تنبيه على طبيعتها المتمثلة في كونها أصوات، وهناك إشارة ثانية لوظيفتها المتجسدة في استعانة القوم بها للتعبير عن أغراضهم المختلفة.

وطبيعي أن اللغة،إنما وجدت ليعبر بها كل قوم عن أغراضهم والربط بين اللغة والقوم،بيان لأهمية اللغة وقيمتها الاجتماعية ،لأن لفظة (قوم) تدل على أفراد المجتمع

37– الخصائص:أبو الفتح عمان بن جنى:تحقيق محمد على النجار دار الكتاب العربي لبنان،ص 33.

برمته لأن "اللغة هي البوتقة التي تنضج فيها الهوية وحسن الانتماء".[38]

أما إذا جئنا إلى المحدثين فما تعريفاتهم للغة إلا ألفاظا مكرورة لما جاء به ابن جنّي، وإن بدت بعض مصطلحاتهم جديدة نتيجة لأثر العصر وروحه ،يقول أحدهم أن اللغة "مكونة من مادتين أي من حقيقتين توجد كل واحدة منهما قائمة بنفسها ومستقلة عن الأخرى،تدعيان الدال والمدلول (حسب دي سويسر)أو العبارة والمحتوى(حسب بامسليف)،فالدال هو الصوت المتلفظ به، والمدلول هو الفكرة أو الشيئ"[39]،وبذلك تصبح اللغة نظاما من الرموز الصوتية ومظهرا من أبرز مظاهر الحضارة الإنسانية،بل أصل الحضارة وصنع الرقي والتقدم، فبِها تتجسد مقومات كل أمة وهي "وعاء تراثها،وقوام شخصيتها، وترجمان ثقافتها،لأنه لولا اللغة ما أمكن للفكر أن ينمو،ولا أمكن للحياة الاجتماعية أن تتحقق، فباللغة نمت الظواهر الاجتماعية، وتوطدت الرابطة بين أفراد الجيل الواحد و بين الأجيال المختلفة في الزمان والمكان، وعن طريق اللغة نطلع على ثقافات الأمم بما في ذلك طريقة معيشتها وسلوكها وتفكيرها، والعلاقات بين أفراد المجتمعات والتمييز بينها،خصوصا لمًا تتعدد اللغة والثقافة أو تتعدد اللغة والثقافة واحدة أو تتعدد الثقافة واللغة واحدة "[40]

ومن هنا يظهر أنه كان للغة منذ ظهورها وظائف جليلة في حياة الإنسان، والجماعة من أفراد المجتمع، فمن الطبيعي أن تصبح اللغة "وسيلة الإنسان للتعبير عن حاجاته ورغباته

38– منافحات في اللغة العربية:صالح بلعيد،دار الأمل،منشورات مخبر تحليل الخطاب،جامعة تيزي وزو،2006،ص 13.

39– بنية اللغة الشعرية:جان كوهن،ترجمة محمد الوالي و محمد العمري،دار توبقال للنشر،ط1،الدار البيضاء،1986،ص27.

40– الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث: محمد الكتابي الدار البيضاء 1982،ص 30.

وأحاسيسه ومواقفه...واللغة كذلك أداة هذا الإنسان للتخاطب مع الآخرين والتفاهم وتبادل الأفكار والآراء والمشاعر معهم، وطريقه إلى فهمهم وتحسس أذواقهم وسبيله إلى معرفة مذاهبهم ووسائل الـتأثير فيهم" [41].

وهكذا ومنذ وُجد الإنسان أصبحت اللغة الأداة الفعالة في حياته الفردية وحياته الاجتماعية، بمعنى أنها أصبحت تضطلع بوظيفة ذاتية شخصية مباشرة مع الفرد بحيث تمكنه من تحقيق أهدافه وطموحاته من جهة،ومن جهة ثانية أداته في الاتصال والتواصل مع الآخرين من أفراد مجتمعه.

ونجد أن اللغة تشكل بُعْدا رمزياً يميز إنساناً عن إنسان آخر،وبالتالي يتمايز فكر المجموعات البشرية عن بعضه البعض لأن اللغة هي الوعاء الذي ينمو فيه هذا الفكر، ويحفظ هذا التمايز،ووظيفة اللغة أبعد من التواصل الذي اتفق عليه أهل الاختصاص بل يرجع إليها الفضل في تحريك نشاط الأفراد والجماعات وتحديد الحدود النفسية والاجتماعية والسياسية بين القوميات وكذا المستويات الاجتماعية [42]، ومعنى ذلك أن اللغة تجمع القوم أو فئة من فئاته الاجتماعية على استعمال معين للغة،يميزهم عن غيرهم، ويناسب الاهتمامات المعينة التي تجمعهم،أو المهنية المشتركة بينهم، وبذلك تُؤدَّي اللغة وفق تلك الاهتمامات المشتركة، "فالأطباء مثلا يستخدمون اللغة لتبادل المعلومات الطبية فيما بينهم فتتأثر لغتهم بطبيعة مهنتهم ،و تصبح لهم خصوصيات لغوية تميزها عن اللغة العامة،في المستويات الصوتية والصرفية والنحوية التركيبية الدلالية،ويكتسب أهل المهنة لغتهم الخاصة في أثناء

41– الحصيلة اللغوية:أحمد محمد المعتوق،سلسلة عالم الفكر ع.212 الكويت،1996،أغسطس، ص 35.

42– في المصطلح ولغة العلم :مهدي صالح سلطان الشمري،كلية الأداب،جامعة بغداد 2012– ص 21.

تدربهم على المهنة ومزاولتها،ليتمكنوا من التواصل بسهولة مع بقية أبناء المهنة". [43]

ومادامت اللغة أداة الفرد والمجتمع فلا بد من أنها تتأثر بالبيئة، وهذا التأثر يؤدي حتما إلى إنتاج أنواع لغوية خاصة،تميز بين المجموعات البشرية بحسب هذه البيئة، فتتكون بذلك اللهجات ولغات المجموعات المختلفة، ولغات أصحاب الاختصاصات المهنية والحرفية.

فمثلا "اللغة التي تكثر فيها الألفاظ الخاصة،أو المصطلحات العلمية،أو المهنية،يمكن تسميتها باللغة الخاصة،ويسميها بعض اللغويين بلغة الأغراض الخاصة لتمييزها عن العامة التي تستعمل لأغراض الحياة اليومية ... و يسميها بعضهم باللغة القطاعية، لأنها تستعمل في قطاع معين من قطاعات الحياة المتعددة،وتكثر في هذه اللغة الخاصة المصطلحات المتعلقة بالحقل العلمي" [44]

ونجد أن مدرسة "براغ" اللغوية كانت تفضل الحديث عن الوظائف اللغوية،بدلا من الأغراض و هي تحدد أربعة أنواع من اللغة،و كل نوع تختلف و وظيفته عن الآخر و هي:

11. اللغة اليومية:أو (لغة الحديث اليومي) ذات الوظيفة التواصلية.

12. اللغة التقنية: ذات الوظيفة العملية التقنية(التطبيقية).

13. اللغة العلمية:ذات الوظيفة النظرية.

14. اللغة الأدبية:ذات الوظيفة الجمالية.

و يختص كل نوع من هذه الأنواع بأسلوب معين [45]

43- علم المصطلح:علي القاسيمي ،لبنان 2008،ص 65-66.

44- علم المصطلح ، ص 66

45- علم المصطلح : ص 66

إلا أن الذي نود الحديث عنه في هذا الصدد هو لغة العلم و لغة الأدب والشعر خاصة وإبراز الفرق بالرغم من أن المقارنة بينهما غير ممكنة بتاتا لأن هناك اختلافا واضحا بين العلم و الأدب، و يتمثل ذلك في استخدام كل منهما للغة.

اللغة والاختصاص (بين العلم والشعر)

إن الحقائق العلمية تختلف عن حقائق الأدب فمثلا إذا قال شاعر مثل أبي العلاء المعري (ت 449 ه):

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

فهو يقدم لنا في هذا البيت تصويرا شعريا لمكونات التربة، يختلف تماما عن المعرفة العلمية للعناصر التي تكونها، ومع ذلك لا يحق لعالم الجيولوجيا أن يعارضه في قوله، فسطح الأرض عند الجيولوجي ليس مكونا فقط من العناصر التي تكون أجساد البشر، إنما يحتوي على عناصر أخرى كثيرة، و مثل هذه الحقيقة الشعرية لا يفهمها الجيولوجي، لأن الشعر له مقاييسه غير تلك التي يقاس بها الخطأ والصواب في العلوم ،ولأن الحقيقة العلمية عامة ومجردة أما الحقيقة الشعرية فهي خاصة و فردية تختلف من شاعر إلى آخر[46]

ومن هنا يظهر التمايز والاختلاف بين لغة العلم ولغة الشعر فاللغة عند العالم لا تعدو أن تكون مجرد أداة وسيلة يحمل على متنها خطابه العلمي الذي يعتبر الأهم، أما اللغة عند الشاعر فهي تعتبر كيانه ووجوده وصورة واقعه الانفعالي أو الاجتماعي.

ويختلف العالم والشاعر في طريقة استخدامها للغة " فحين ننظر إلى الشعر(وهو صناعة تخيلية) في مقابل البرهان (وهو صناعة تصديقية) [تثار] قضية الاستخدام العلمي أو البرهاني والاستخدام الشعري للغة، أو الاستخدام الحقيقي أو الاستخدام المجازي للغة، فاللغة العلمية(لغة البرهان) تلتزم باستخدام

46– في المصطلح ولغة العلم: ص 28

الألفاظ بمعانيها الحقيقية التي تدل عليها دون تَجَوز،أما لغة الشعر فإنها تخرج عن الاستخدام الحقيقي للألفاظ،و من هنا تفترق لغة العلم (أو البرهان) جوهريا عن لغة الشعر" [47]

ويظهر مما سبق أن لغة الشعر ينبغي أن تتجاوز مستوى الإفهام الذي تحققه الألفاظ الحقيقية في لغة العلم أو البرهان إلى مستوى آخر وهو اللذة والتعجيب أما لغة العلم فهي " لغة منطقية خاصة،لغة تعبر عن العلم المحض،و قضاياه العلمية،من دون لبس أو غموض بدقة متناهية،ووضوح مطلق" [48]

والاستخدام الحقيقي لألفاظ اللغة العلمية أو لغة البرهان له مسوغاته " فالمخاطبة العلمية يقتضي بها علم شيء أو يفاد بها علم شيء ، ويتم ذلك بضربين من الأقاويل إمَا السؤال عن الشيء،وإمَا القول الجازم"[49]، وهذا معناه أن لغة العلم يحددها الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه، وهو اعتقاد شيء ما،أو التصديق به، ومن ثم وجب أن تكون الألفاظ المستخدمة حقيقية دالة على معانيها ... حتى يتحقق التصديق [50] لأن الألفاظ الحقيقة هي المناسبة والأليق بأن تستخدم في الخطاب العلمي الذي يقوم على الإقناع الجزم والإبانة عن الأمور المنطقية.

والحقيقة أن معرفة الفرق الموجود بين اللغة الشعرية ولغة العلم وتشخيص خصائصهما يتأتى ويتضح بشكل كبير من خلال الوقوف على ما جاء به أحد أئمة النقد العربي وهو حازم القرطاجي من خلال كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء.

47– نظرية الشعر عن الفلاسفة المسلمين:ألفت كمال الروبي ،دار التنوير للطباعة والنشر،ط1،بيروت 1983 ،ص 156.

48– في المصطلح و لغة العلم: ص 28.

49– نظرية الشعر عند الفلسفة:ص 157.

50– نفسه، ص 157

اللغة و أنواعها في كتاب المنهاج:

تعتبر اللغة دعامة أساسية في نظرية حازم القرطاجني النقدية و هي حاضرة بكافة في مشروعه النقدي،لذلك نجده يسعى إلى" توفير أداة معرفية تأخذ الإنسان واللغة أو بعبارة أدق:تأخذ الفعالية اللغوية للإنسان بعين الاعتبار، مما جعل حازم يتجه إلى علوم البلاغة باعتبارها علما كليا يستخلص رحيقه من علوم اللسان الجزئية "[51]

إن نظرة حازم للغة نظرة نافدة لا تقف عند قشرتها الخارجية بل تعبر إلى أبعادها المختلفة، وهي نظرة لم تكن بمعزل عن علم البلاغة لأن العلاقة بينهما قائمة، ولأنه كما يقول الدكتور جابر عصفور: "إن موضوع علم البلاغة و صناعتها هو الأدب و بخاصة الشعر .... ومادام موضوع علم البلاغة هو الأدب، فمادته التي يتعامل معها هي الكلمات المنتظمة في سياق متميز" [52]

ويكتشف لنا حازم عن الأبعاد التواصلية النفعية للغة من خلال التعريف الذي يقدمه في قوله: "لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها بحسب احتياجهم إلى معاونة بعضهم بعضا على تحصيل المنافع وإزاحة المضار وإلى استفادتهم حقائق الأمور وإفادتها،وجب أن يكون المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطب،أو الاستفادة منه" [53]

إن هذا الكلام من قبل القرطاجني ينبئ عن مدى إيلائه الأهمية إلى الوظيفة التواصلية للغة بجعلها الوظيفة الأساسية،و يظهر ذلك في استعمال الكلام من لدنه من خلال إناطته بغاية

51– البلاغة العربية أصولها و امتداداتها:محمد العمري،افريقيا الشرق،1999،ص 478.

52– مفهوم الشعر:جابر عصفور،ص 131.

53– منهاج البلغاء وسراج الادباء: تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة،دار الغرب الإسلامي ،ط2،بيروت 1981 ،ص 344.

تحقيق المنافع وإزاحة المضار،[كما يُفصح الناقد عند بيانه وظائف اللغة على مقاصد المتكلم التي لا تخرج عن الوظيفة التواصلية الاجتماعية المتمثلة عنده في غرضي الإفادة و الاستفادة.

أما إذا جئنا نستقصي في نظرته إلى اللغة الشعرية ولغة العلم فإننا نجده يستند في نظريته على آراء السابقين من النقاد العرب فهو يبدأ بمهاجمة إيراد المعاني العلمية في الشعر ويحذر من استعمالها وذلك في باب المعاني حيث يقول: "البُصراء بهذه الصناعة كأبي الفرج قدامة وأضرابه قد نصَ جميعهم على قبح إيراد المعاني العلمية والصناعية و العبارات المصطلح عليها في جميع ذلك و نهوا عن إيراد جميع ذلك في الشعر" [54]

إن رفض النقاد من أمثال القرطاجني وقدامة وابن سنان الخفاجي لدخول المصطلحات العلمية والفلسفية في الشعر واعتبارها قبحا يرجع إلى نفور لغة الشعر من المعاني العلمية وتأبِّيها عليها، ففي هذا الصدد يقول جابر عصفور معلقا على قول حازم السابق: "إذا كان مجال الشعر متميزا عن مجال الفلسفة فإنه متميز عن مجال غيرها من العلوم ،وبديهي – والأمر كذلك أن يقبُح إيراد المعاني العلمية في الشعر،أو التعرض لما يسمَى"المسائل العلمية"،والقُبْحُ هنا مقصور على كيفية معالجة،وتجاوز الإطار الوظيفي المرتبط بالتخييل إلى إطار آخر،يتصل بحشد المسائل العلمية في القصيدة " [55]

54– المنهاج:ص 25.ويقول ابن سنان في مثل هذا المذهب :"ومن وضع الألفاظ موضعها :أن لا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين ،والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التي تختص بها أهل المهن والعلوم ، لأن الإنسان إذا خاض في علم وتكلم في صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ ذلك العلم ،وكلام اصحاب تلك الصناعة." سر الفصاحة :دار

الكتب العلمية ،1402 هـ ،ص159

55– مفهوم الشعر:ص 24.

إن التباين والفرق الحاصل بين لغة العلم واللغة الشعرية،يكمن في الاختلاف الوظيفي بين اللغتين،فالشعر بخصائصه الفنية يأبى الانصياع لطبيعة المسائل العلمية البرهانية اليقينية، وأكثر من ذلك نجد القرطاجاني يباعد بين اللغتين ليس من حيث الخصائص والمميزات فحسب ، بل من حيث المهمة وهي الأهم والأساس في نظريته النقدية و المتمثلة في التأثير في النفوس.

فمن هذا المنطلق نجده القرطاجي يربط بين معاني الشعر وصفاء النفس و في الوقت نفسه نجده يُنفِّر من المعاني العلمية لأنه "يتوجس خيفة من أن يقترب الشعر بحقيقته الشعورية مجال المسائل العلمية،مع أنه في مقدور الشاعر أن يُسقط على هذه المسائل دلالات عاطفية وأن يقربّـها من مجال الوجدان" (56) لذلك نجد القرطاجني يقيم حدَا فاصلا بين المعاني التي فُطرت عليها النفوس،والمعاني العلمية من حيث القدرة على تحريك النفس وإيقاع التأثير فيها ،فالمعاني التي لها وقع في النفوس هي المعاني المقصودة في نظام البيان العربي و هي التي تحدث الإحساس بالجمال،أما التي ليس لها وقع في نفوس الجمهور فيسميها حازم بالمعاني الدخيلة (57) .

وإذا كان حسن الموقع من نفوس الجمهور شرطا من شروط البلاغة والفصاحة عند حازم(58)،فذلك دليل على ربطه بين "الشعر وبين الحياة الطبيعية أو حياة الحس عامة،وأنه حاول أن يُبْعد الشعر عن العلم قدر استطاعته،وجعل ينبوع الشعر من حركات النفس،ومصبُه النفوس الإنسانية في مدى

56–من قضايا التراث العربي ،النقد والناقد :فتحي أحمد عامر ،منشاة المعارف،الإسكندرية، ص 343.

57– استقبال النص عند العرب:محمد المبارك،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط1 ،بيروت 1999 ،ص 19.

58– المنهاج:ص 25.

تقبلها أو إعراضها بحسب الفطرة،ولهذا كان من الطبيعي أن يوجه الشاعر ليستمد معانيه من التجربة الحسية"[59]

وليس التركيز من جانب القرطاجني في النص السابق على الحس،تمييزا للشعر عن غيره من الفنون فحسب،بل هو حرص وتوكيد على ذلك،لأن الحسية هي لغة الشعر، وعكسها اللغة التجريدية ،أي اللغة العلمية المحضة كون "الأقاويل العلمية -أساسا- لغة تجريد تهدف إلى إيصال مباشر لمجموعة من الحقائق ... يتوصل إليها الذهن من خلال عمليات تجريد، أما لغة الشعر فهي لغة حسية لا تصبح فيها الكلمات مجرد إشارات أو علامات،و إنما تصبح مجموعة من المثيرات الحسية،تثير في ذهن المتلقي صورا أو إحساسات و تحرك انفعالاته ومشاعره " [60] وتقديم الحس و تفضيله في لغة الشعر له انعكاسُهُ الإيجابي في نفسية المتلقي لأن لغة الشعر تظهر قوتها من خلال"تركيز الأقاويل الشعرية على أَعْراض الأشياء ولواحقها،وهو الأساس النظري،الذي يبرز قدرتها على التقديم الحسي،و ما يتميز به عن لغة العلم من إتاحة المواجهة المباشرة لموضوعها عن طريق تصويره و تمثيله للحس" [61]

إن اللغة في نظر حازم هي أداة ناجحة في إيقاع الحُسن أو التقبيح في النفس وهو أساس نظريته النقدية و البلاغية ،ومن ثم كان لاختلاف الخطاب الشعري عن الخطاب العلمي عندهُ له مقاصد محددَة ومختلفة،و ينبع هذا الاختلاف من خلال خصائص كل منهما إذ أن" الشعر يختلف عن العلم في استخدام اللغة ،ففي الوقت الذي تقوم فيه المواصفة في عملية التوصيل العلمي على استخدام اللفظ على الحقيقة،يقوم الشعر في استخدامه الخاص للغة سواء عن طريق التحوير أو التحريف

59– تاريخ النقد الأدبي عند العرب:إحسان عباس، ص 553.

60 – الصورة الشعرية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب :جابر عصفور ، المركز الثقافي العربي ط 3 ، 1992 ،ص 304

61– مفهوم الشعر:ص 216.

على الدلالة بالمواصفة،على استخدام الألفاظ على المجاز "[62] ومن هنا يصبح المجال أضيق عند العالم لأنه لابد عليه أن يستعمل اللفظ فيما وُضع له بالعرف و العادة،ولا يحيد عن ذلك أبدا، وإلا صارت الحقيقة التي هو في صدد إثباتها منحرفة ومشوهة وغير صادقة،كون الواقع العلمي ينهض على الملاحظة والتجربة، وإحقاق المسلّمات .

فالعالم إذا جانب استعمال اللغة العلمية المحضة خالف واقعنا العلمي،وبالتالي يتعرض خطابه العلمي للرفض ويخرج بذلك عن محراب العلم،أما الشاعر فالمجال عندهُ أرحب وأوسع وما يُمنح له من مساحة الحرية لا يمنح لغيره من الكتاب فهذا الخليل يقول:"والشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاؤوا "[63]

والشاعر ليست مهمته استعمال اللفظ في ما وضع لهُ بل يحمد ويُتاب إذا لجأ إلى استعماله في معنى مُبْتدع أو مُخْترع ،لأن الشعراء كما يقول ابن سينا هم "أوّلُ من اهتدى إلى استعمال ما هو خارج عن الأصل إذ كان بناؤهم لا على صحة بل على تخيُّل"[64] وبذلك يصبح من الظاهر مثلما يقول الدكتور جابر عصفور"أن هناك فرقا جدريا بين الأقاويل الشعرية والأقاويل العلمية ... الأقاويل العلمية تهدف إلى إيقاع تعريف أو تصديق، معتمَد في ذلك على إثبات الشيئ بماهيته المشتركة والخاصة لتدل على حقيقته المحايدة، أما الأقاويل الشعرية فإنها لا تهدف إلى تعريف أو تصديق بل تهدف إلى إيقاع تخيُّل".[65]

62–المرايا المقعرة:مجلة ص ر 374

63– ترانا النقدي:دراسة في كتاب الوساطة للجرجاني،السيد فضل منشأة المعارف،الإسكندرية،ص 45.

64– نفسه:ص 46

65– مفهوم الشعر :ص 215.

إن القرطاجني استطاع ببلاغته النافذة أن يفرق بين اللغة الشعرية واللغة العلمية ويبين خصائص كل واحدة ،والملاحظ بكل بساطة أن لغة الشعر عنده هي اللغة التي تخاطب المشاعر والأحاسيس وتحاور النفس البشرية، وأن لغة العلم هي التي تتوجه إلى الذهن وتتمثل الموضوعية فنجده يقدم مقارنة فنية بين اللغتين في قوله: " فالمحصول الأول كحصول العلم مثلا بامتلاء إناء و خُلوّه بأن يُبْصَر مثلا يُرشَّح أو يوجد ثقيلا أو يُبْصَر مُكفَّأ ويوجد خفيفا، والمحصول الثاني وهو الذي للأقاويل الشعرية،مثل ما تَشِفُّ لك آنية الزجَاج عن صورة ما تَحويه،فلذلك صارت الأقاويل الشعرية أشدّ إبهاجا وتحريكا للنفوس من غيرها، فلشدة مناسبة الأقاويل الشعرية للأغراض الإنسانية كانت أشدّ تحريكا للنفوس وأعظم أثرا فيها" [66]

هذه المقارنة بين الأقاويل الشعرية والأقاويل العلمية لها ما يبرّرها عند ناقدنا،فالصورة الأولى هي المعبّرة عن الأقاويل العلمية والتي لا يمكن تحديدها وتمييزها والوقوف على دقائقها إلا من خلال إعطاء البصر بالعين المجردة حقّه ونصيبَه، حتى يُتمكن من تحديد ماهية ما امتلأ به الإناء ، أما في الصورة الثانية فإن اللغة تَمنَح نفسها لمتلقيها وتكشف عن جمالها من دون تعقيد أو حواجز،بل تأتي في صورة شفافة فتبعث بذلك في النفس بهجة وتحركا،وذلك يرجع لشدة مناسبة الصور الشعرية للأغراض الإنسانية.

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن " اللغة العلمية،لغة دلالية محضة،فهي تهدف إلى التطابق الدقيق بين الإشارة والمدلول،أما اللغة (الشعرية) فهي لا تكون دلالية فقط،وإنما تمضي أبعد من ذلك، إذ أنها تهدف إلى التأثير في موقف القارئ"[67]

66–المنهاج:ص 120،121.

67– نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين:ص 178.

15. وبهذا تكون المقارنة بين لغة الشعر ولغة العلم كشفت عن تعارض واضح بين وظيفتهما ،حيث أن الأساس في القول العلمي واللغة المستخدمة فيه ملزمة بالتحديد والتقيُّد الصارم بالمنهج العلمي، وهذه اللغة يجب أن تكون دالة بشكل مباشر على المعاني المقصودة بلا زيادة أو نقصان أو تحريف لحقيقتها،أما الأساس في اللغة الشعرية فغرضه إحداث التأثير النفسي في المتلقي ببعثه إلى اتخاذ سلوك ما اتجاه شيء مخيَّل بصرف النظر عن صدقه أو كذبه.